الأطفال في العالم

فجعت في يوم مشؤوم في أعزّ حبيبين إلى قلبي... فقد مات أبويّ في حادث

سيّارة لعين. فبتّ من يومها وحيدا, طفلا صغيرا مدلّلا يفقد أبويه في يوم

واحد!؟... أظهر أحد الجيران شفقته بي وأبدى رغبة ملحّة في تربيتي وتعويضي

هذا الفقد العظيم. شكره النّاس على صنيعه وتوقّعوا له الثواب لما سيفعله من

خير. وهم لا يدركون أنّه مجرّد ثعلب ماكر وقع على فريسة ثمينة. لأنّه ما بيّت

في قرار نفسه سوى الغدر والاستغلال لجهودي، جهود طفل لم يدرك بعدُ مرحلةً

يكون فيها قادرا على العطاء.. كان جارنا يملك ضيعة كبيرة وكان من عائلة

غنيّة تملك ثروة طائلة. لكنّه كان قاسي القلب لا يعرف الرّحمة. فقد حرمني من

مواصلة دراستي بتعلّة أنّ الرّجل الفعليّ من اعتمد على نفسه منذ الصّغر. تألّمت

في صمت، وانطويت على ذاتي في أسى لا يسعه العالم بأسره. لِمَ الّلهمّ كتبت

عليّ الشّقاء وأنا البرعم الصّغير الذّي لم يستو عوده بعد؟ لِمَ إلهي حرمتني من

نعمة والديّ وأنا في شديد الحاجة إليهما؟ أهو الاختبار لإيماني أم هي حكمة

عميقة لم يدركها بعد رأسي الصّغير؟... دوّامة من الأفكار تهت فيها فلا مرشد,

ولا يدا حانية تضمّد جراحي وتشبع ظمئي للحبّ، للحنان، للرعاية... كنت

كالطّائر الجريح الذّي لا يقوى على الحركة... كنت أشعر بالهزيمة والإذلال,

ولكن من أيّة معركة؟ لست أدري؟... وأية هزيمة أفضع من الشّعور بأنّ قوى

خفيّة تأبى عليك السّعادة؟... لم يمض على استضافتي في بيته أسبوع واحد حتّى

استكثر عليّ البقاء منعّما دون أن أبذل جهدا... فقد جاءني وابتسامة ماكرة تعلو

وجهه المنتفخ كالبالون ليقول لي في صوت ناعم كنت أحسّه كالسّياط تلسعني

لسعا في كلّ ذرّة في كياني, وتمزّق كبدي دون رحمة: " بنيّ، لقد آن الأوان

لتخطّط لمستقبلك. سآخذك معي إلى الضّيعة وهناك ستشرف رفقة رجل طيّب

على جميع أعمالنا في الضّيعة. فكن عند حسن ظنّي وحاول أن تتعلّم أصول

العمل لتتسلّمه كلّه في المستقبل ..." انحدرت من عينيّ دمعتان ودّعت بهما

طفولتي واستقبلت بهما رجولتي المبكّرة... كنت أعلم أنّ أندادي لا مكان لهم غير

المدرسة، ولا أحضان تؤويهم غير أحضان أمّهاتهم... ولكن أنّى لي ذلك؟...

جمعت إثرها شتات قوّتي وقلت له في ثقة غريبة: "كن مطمئنا يا عمّي سأتعلّم

سريعا وسأكون عند حسن ظنّك فلا تخشى شيئا..." منذ ذلك اليوم وأنا أعمل دون

كلل, فقد ركّزت كلّ طاقاتي في العمل وتعلّم أصوله من العمّ سعيد ناظر الضّيعة

الطيّب. كنت كالطّاحونة تدور وتدور دون تعب... كنت أعمل من مطلع الفجر

إلى آخر النّهار ثمّ أضع جسمي المنهك حيثما جلست فلا أشعر بالوجود من

حولي،،، كنت كمن يهرب من نفسه، من هواجسه، من واقعه المرّ,,, كنت كمن

يفرّ من ظلّه حتّى لا يدرك الحقيقة... حقيقة الاستغلال والإذلال... فقد قضّيت

سنوات طويلة وأنا على هذه الحال... أعترف أنّ الطّبيعة قد منحتني من حلاوتها

وجمالها وشبابها الكثير. ولكنّ منتوج الضّيعة الوافر الذّي يتزايد مع كلّ سنة لم

يمنحني سوى الفقر المتواصل... فأثوابي بالية لا تتجدد وحياتي خاوية لا معنى

لها... أدركت الآن أنّ ثمرة سنين التّعب الطّويلة كانت تذهب كلّها إلى خزائن

صاحب الضّيعة، فتزداد ثقلا بما حوته من ثروة لا يقدر على إحصائها غير الّله.

وما أزداد مع الأيّام سوى شعور حادّ بالحاجة إلى مأوى نظيف لا أجده، أو لقمة

طريّة لا أجد من يوفّرها، أو قلبا رؤوفا يرقّ لحالي ويقدّر جهودي... فصاحب

الضّيعة لا يزداد مع الأيّام سوى لهفة على جمع المال. فلا يجد الحيلة لخلق

المزيد منه بخلق المزيد من المتاعب لشقيّ مثلي. ففي كلّ موسم تراه يقترح

إدخال مشروع جديد يدرّ عليه المزيد من الرّبح. فلا يجدني غير الخادم المطيع

الذّي ينفّذ ما يؤمر به وكأنّه الكتاب المنزّل... سئمت يا صاحبي، أن أكون سلبيا

ينفّذ ما يؤمر به وكأنّه العبد الذّليل الذي لا يملك إرادته... بتّ أطمح إلى حياة

أشعر فيها بحريّتي بإنسانيّتي بقيمة ما أنتج بالتمتّع بثمار ما أنتج

فماذّا افعل ؟؟

نور ألبرادعي / نور الهنتاتي

المدرسة الإعدادية : الحبيب الشعبوني

الاستاذة : نبيلة اللوز الفريخة

